تاريخ الأدب المقارن وأساسه النظرية: المحطة الأولى 2023\4\2، فولتير (1694-1778):

مقدمة:

ظهر مصطلح الأدب المقارن عنوانا لباب معرفي جديد يهتم بدراسة تبادل ظواهر التأثير والتأثير بين الآداب المختلفة، مع محاضرات ألقاها فرانسوا آبل فيلمان (1790-1870) في جامعة السوربون بين عامي (1827-1829).

وتعاقب الباحثون بعده، يعيدون النظر في قضايا هذا المصطلح، وتاريخ ولادة تلك الظواهر، وشروط دراسته، وما يتصل بها من ظواهر أخرى متشابكة معها، مما جعل الدارسين المختلفين في بلدان العالم، متنوعي الرؤى، في هذه الميادين... وقد وجد معظمهم أن تبادلات الاهتمام بالآداب والمجتمعات الأخرى ودراساتها قديمة في البلدان المختلفة، لكنها لم تترسخ وتتوسع إلى في مطالع القرن الثامن عشر، مع فولتير، ثم مدام دوستايل، وستاندال، وشاتوبريان وغيرهم، قبل ظهور مصطلح "الأدب المقارن" مترافقا مع نزوع علمي إلى تحديد ولادة منهج جديد في علم الأدب، ودراساته الأدبية، ذي غايات متصلة بدراسة الصلات الخارجية للأدب، خارج حدوده اللغوية والقومية، ومن الراجح أن الاطلاع على جهود الدراسات الأدبية التي قدمها فولتير، ثم مدام دوستايل، وستاندال، وشاتوبريان وغيرهم، مهدت لإعلان فيلمان عن ولادة باب معرفي جديد في الدرس الأدبي، ذي غايات جديدة باتت ضرورية، سماه "الأدب المقارن".

أولا، فولتير وسبله إلى الآداب الإنكليزية:

أ، انفتاحه منذ مطالعته المبكرة، على الثقافات الإنسانية شرقا وغربا، شأنه في ذلك شأن معظم معاصريه من التنويريين وأصحاب رؤى الإخاء الإنساني، والتمرد على الانغلاق والركود المحلي، ذي الأفق الضيقة، ومن أبرزهم: مونتسكيو، وديرو، وجان جاك روسو.

ب، شعوره بالظلم بعد سجنه زمنا في باريس، بتهم ودسائس سياسية، جعله يرى الابتعاد عن أصحاب الدسائس، واختيار الإقامة في لندن.

ج، تعزُّرُ سبل اطلاعه على اللغة الإنكليزية وآدابها، ولاسيما شكسبير، بإقامته في لندن مدة ثلاث سنوات (1726.1728م)، وفُرَّتْ له فرص حضوره عروض المسرح الإنكليزي، ولاسيما مسرح وليم شكسبير (1564-1616).

د، تأثره بحواراته مع أعيان دارسي الآداب الإنكليزية وأعلامهم، وبمحدثاته معهم، مما جعله يعلي من مكانة أعلام هذا الأدب، ولاسيما شكسبير، ويكتب عن ذلك ناقلا عدوى إعجابه بذلك إلى قرائه من المثقفين الفرنسيين البارزين مثل دييرو وغيره.

ثانيا، كتابه "الرسائل الإنكليزية"، أو "الرسائل الفلسفية":

أ، تضمن هذا الكتاب مقالات في ظواهر الأدب الإنكليزي وأعلامه، ولاسيما شكسبير. وقد أورد كل مقالة تحت عنوان "الرسالة"، مع منح كل رسالة صفة تراتبية: الأولى، فالثانية، إلخ،
ب، عمقت الرسالة الثامنة عشرة من رسائل الكتاب اختصاصها بأدب شكسبير.
ج، مبالغة فولتير في إعجابه بالأدب الإنكليزي، ولاسيما شكسبير، ثم تغييره مواقفه في هذا المضمار.
د، تغير مواقف فولتير من شكسبير، وكشفه عن مساوئه ومساوئ أدبه، بعد إعجابه السابق به، يمكن إيجازها في الآتي:

1، أخذ عليه جهله، وأنه لا يعرف اللاتينية. ونتذكر أن اللغة اللاتينية ظلت لغة الثقافة الرصينة والعلم، لدى أعلام المدرسة الكلاسيكية الذين كان فولتير واحدا منهم.
2، أخذ عليه أنه بعيد في مسرحياته عن قواعد الذوق.
3، وأخذ عليه أنه بعيد عن وحدتي الزمان والمكان. (من أسس المدرسة الكلاسيكية).
4، وأنه يعرض على النظارة مناظر وحشية. لقد كتب فولتير في كتابه (الرسائل الفلسفية): " تعلمون أن في مسرحية عطيل يغتال زوج امرأته على المسرح، وتصيح المسكينة حين تهوي صريعة، أنها اغتيلت ظلما، وتعلمون كذلك أن حفاري القبور في رواية هاملت يحفرون وهم يشربون ويغنون، لاهين برؤوس الموتى، في سخرية ليست بغريبة على من مثلهم في مهنتهم".

5، وصلت ذروة هجوم فولتير على شكسبير، عندما قال عنه عبارته الشهيرة:

"Il est bon pour des Hottentots "

"هو يكون كاتباً جيداً لقبائل هوتنتوت في أفريقيا".

6، لم يفلح تغييره مواقفه من شكسبير، في إلغاء ما أنجزه إعجابه السابق به، من تأثير في تعزيز مكانة شكسبير واستقباله في أوساط الأدباء والمثقفين الفرنسيين، مما جعل موضوع موافه الجديدة منه، موضوع جدالات وحوارات ساخنة في فرنسا، وصلت ذروتها مع قول دييرو:

"C'est un colosse entre les jambs duquel nous passerions tous"

"إنه العملاق الذي سنمر جميعاً من بين قدميه"

7، كان قد مر على رحيل شكسبير أكثر من مئة سنة، عندما عرفه القارئ الفرنسي في منتصف القرن الثامن عشر، بفضل جهود فولتير (1694-1778)، ذي "المعرفة العميقة باللغة الإنكليزية"، في تقديمه للقراء.

ثالثاً، كتابه "الرسائل الإنكليزية" في ضوء "الأدب المقارن":

أ، ماريو فرانسوا غويار (1921-2011م) (Marius – Francois Guyard) في كتابه "الأدب المقارن"، وفي دراساته المتنوعة، عني بكتاب فولتير، وبين مواقفه من الكتاب وجهود صاحبه في مجموعة من النقاط التي عد بعضها في صميم دراسات الأدب المقارن، وعد بعضها في صميم موضوعات تلك الدراسات وميادينها:

1، دور فولتير في التعريف بشكسبير وأدبه خارج حدوده اللغوية والقومية:

يقول غويار: "إن شكسبير الذي كان مجهولاً في القرن السابع عشر في فرنسا، جهلاً يوشك أن يكون تاماً، إذا لم يكن قد أدخل إليها، فهو على الأقل قد جعل فيها دارجاً بفضل فولتير". (ص 101 غلاب)...

وبين عدم اقتصار جهود فولتير على التعريف بشكسبير في فرنسا، إذ عرفته بلدان أوربية عدة بوساطة فرنسا، "إن ألمانيا، عُرف شكسبير فيها، بعدما عرف في فرنسا". (ص 103).

"كانت آراء فولتير ذات أثر عميق في اكتشاف شكسبير في القارة الأوروبية جمعاء، ولم يكن شكسبير معروفاً خارج إنكلترا قبل ذلك الوقت، وقد كان أثر فولتير عميقاً لأسباب متعددة: مكانة فولتير كاتباً ومفكراً، وسمعته التي جعلت ما يكتب مسموعاً في فرنسا وخارجها. ومنزلة اللغة الفرنسية في عصر فولتير، فقد كانت لغة أوروبا الثقافية، وذات المكانة الأولى فيها".

2، دراسة تغير مواقف فولتير من شكسبير، ذلك التغير الذي سماه فرناند بالدنسبيرجيه أستاذ غويار، يوم درسه قبله، "بتلّون فولتير"، يقول غويار: "ولا ريب أن محاولة ف. بالدنسبيرجيه تساعدنا على أن نفهم ما سمّي "بتلّون فولتير" في رأيه". (ص 102)

3، نقد فولتير لشكسبير نقداً مرّاً؛ (هذا النقد الفولتيري) ذو طابع كلاسيكيّ، "يعبر عنه فولتير ذو الذوق الكلاسيكي".

4، كان فولتير واحداً من الذين مهّدوا بكتاباتهم الأدبية والفكرية للنّورة الفرنسيّة، ولدفع عجلة الدّراسات الأدبيّة إلى الاهتمام بالصّلات الخارجيّة للأدب خارج حدوده اللغويّة والأدبيّة. هذا الميدان الذي اختصّ به الأدب المقارن منذ مطلع القرن الثّامن عشر، وضع فولتير لبنة مهمة في تاريخ الصّلات الأدبية الدولية، التي سيحدد بها بعد ماريو فرانسوا غويار، المضمار الرئيس للأدب المقارن، بمثل قوله: "أجل إن الأدب المقارن على معنى أنه تاريخ الصّلات الأدبية الدولية وجد من أكثر من ستين عاماً". (قضية تحديد ولادة الأدب المقارن تاريخياً قابلة للحوار والمناقشة).